جيل الانقسام الفلسطيني.. وبقايا أمل

بقلم: د. فريد أبوضهير

قسم الصحافة – جامعة النجاح الوطنية

كنا نطلق في السابق على الأجيال التي نشأت في ظل الانتفاضة "جيل الانتفاضة". وأطلقنا على الجيل الذي نشأ في ظل اتفاقية أوسلو "جيل السلام"، واليوم يحق لنا أن نطلق على الجيل الذي ينشأ في ظل الانقسام، وفتح عينيه على هذا الوضع الشاذ الذي يمر به شعبنا، "جيل الانقسام".

وتطلق هذه التسميات عادة على الأجيال الفلسطينية الشابة لسببين: الأول يتمثل في طول فترة الحدث، ومعايشة الأجيال الجديدة للحدث لفترة طويلة نسبيا، أي تمتد لعدة سنوات. والسبب الثاني يتمثل في التأثيرات الثقافية والسلوكية والتربوية على الأجيال، بحيث تترك هذه الأحداث تأثيرات عميقة لدى الجيل، وتتخذ سلوكياتهم أنماطا معينة تختلف إلى حد ما عن الأجيال الأخرى.

فمثلا، امتاز جيل الانتفاضة الأولى، كما يرى البعض، بضحالة الثقافة والتعليم، وضعف تأثير الأسرة على الأبناء. وبالطبع، يترك هذا الأمر للتربويين للخوض فيه بتفاصيله، والبحث فيه للوصول إلى التشخيص والعلاج المناسب، رغم تعقيد هذا الأمر وصعوبة الوصول إلى حلول ناجعة على المستوى الاجتماعي.

جيل الانقسام، الذي بدأ يتبلور خلال السنوات الأخيرة التي مر بها شعبنا، فتح عينيه على الصراعات الداخلية، وهي صراعات ليس من السهل أن يفهم أسبابها وأبعادها، ولكنه التقط الشكل الخارجي لها، والمظاهر التي اتخذتها، وملخصها أن هناك صراعا بين فصيلين كبيرين على الساحة الفلسطينية على السلطة. ولم يأبه هذا الجيل بالأسباب التي تقف وراء الخلافات، أو فيما إذا كان هناك حق مع هذا الطرف أو ذاك، أو دور الجهات المحلية والإقليمية والدولية في تأجيج هذا الصراع وتغذيته وإطالة أمده.

كما أن هذا الجيل فتح عينيه على وجود جناحين لفلسطين متباعدين جغرافيا، تفصلهما الخلافات وتمزقهما الصراعات، وتفتك بهما الانتماءات الحزبية والاستقطابات السياسية، أكثر مما تفصلهما الجغرافيا. وأخذ يتعمق في وجدان هذا الجيل في الضفة أن غزة، وسكان غزة، عالم آخر لا يمت إلى الضفة بصلة، والعكس صحيح.

من المهم أن نصارح أنفسنا بأنه من المهم تحميل الأطراف جميعا مسؤولية ما حدث ويحدث، حيث مارس الجميع عملية التعبئة والتحريض ضد الآخر، والسعي لغسل دماغ الأنصار والمواطنين، فأصبح كثير من سكان غزة لا يسمعون إلى وجهة نظر واحدة، ومعظم سكان الضفة لا يسمعون إلى وجهة نظر الطرف المقابل. أصبح المواطن لا يرى الأمور إلى من زاوية واحدة، ويعجز عن إدراك الحقيقة التي لها جوانب

متعددة. لقد سعى كل طرف إلى إلغاء الآخر، وإلى العمل على تجريمه وإخراجه من الملة أو من دائرة الوطنية، وقام بتشويه الأمور في عقل المواطن بطريقة لا تنسجم وأخلاق الشعب الفلسطيني.

جيل الانقسام يبرئ الاحتلال

أما على صعيد الصراع مع الاحتلال، فربما يتجذر في وجدان هذا الجيل أن غزة تعني الحصار، وربما الصمود أيضا. وفي المقابل فربما يتجذر لديه العجز أمام سياسات الاستيطان في الضفة، وضرورة السعي إلى حلول سلمية للصراع، وترتسم أمام ناظريه تساؤلات حول القدرة على الصمود على الأرض في ظل غياب الخيارات. والأخطر من ذلك هو الصدمة التي يواجه بها الفرد من هذا الجيل نفسه في مجال حقوق الإنسان التي سحقت ولم يبق منها سوى الكلمات والشعارات. فلا حديث بين الناس، وبين أبناء جيل الانقسام، سوى الاعتقالات السياسية والتعذيب والملاحقات في غزة والضفة على حد سواء، وغير ذلك من الممارسات.

لكن الأخطر من كل ذلك هو أن ينشأ هذا الجيل على عدم الاكتراث بالهم الوطني، والكفر بالسياسة، ونسيان الأرض والقدس واللاجئين، وعدم الإيمان بالجهود الوطنية التي تبذل في سبيل إخراج فلسطين من واقع الاحتلال المرير، والوصول إلى إقامة الدولة المستقلة. بل وينسى أن إسرائيل تتحمل تبعات كل ما يجري، وهو ما يعني تبرئة الاحتلال وأخلاء ذمته مما يجري، مع العلم أن الحقيقة الوحيدة يجب أن لا تغيب في خضم ما يجري هي أن أساس المعاناة هو الاحتلال، وأن كل ما يمر بالشعب الفلسطيني من مآس وكوارث مصدره الاحتلال..

هذا الجيل أصبح لا يرى دور إسرائيل في صورة ما يجري بوضوح، ولا يرى في الواقع إلا سعي كل فصيل لإلقاء اللوم على الفصيل الآخر وتحميله مسؤولية الدمار الذي حل بالقضية جراء الانقسام.. الأخطر أيضا هو أن ينشأ جيل همه الطعام والشراب والترفيه والتمتع بالمال دون أي اعتبار للوضع الاستثنائي الذي يمر به شعبنا. وأن يبرر كل ذلك بالانقسام وبوجود صراع بين فتح وحماس.

جيل الانقسام جيل ينفر من نشرات الأخبار، ويبحث عن ملاذ ينسيه همه السياسي، ويجعله يخوض في شؤون الحياة المتعلقة به كفرد. وهو جيل يضيق بأحاديث السياسة، وهو ما يورث ضيق الأفق لديه، وكفر بالديمقراطية والانتخابات والحريات. ولذلك، فإنه لن يكون من المستغرب أن تشهد الانتخابات القادمة انحسارا واضحا للمشاركة الشعبية، بل وانحسارا كبيرا للمشاركة السياسية بشكل عام.

كما أنه جيل يؤمن بنظرية المؤامرة، وأن كل ما يجري إنما هو ترتيبات دولية وإقليمية هدفها تصفية القضية. فمن وجهة نظره أن كل ما يجري إنما هو وفق ترتيبات ترعاها أمريكا، وتنخرط بها السلطة وحماس، وتتواطأ معها الأنظمة العربية. وأن الحرب على غزة هو مسرحية، وأن الاستيطان يتم برضا السلطة في الضفة، وغير ذلك من التحليلات التي لا تمت إلى المنطق بصلة.

جيل الانقسام جيل يؤمن بضرورة الهجرة إلى الخارج، والبحث عن العمل والدراسة في أي مكان في العالم غير فلسطين. هو جيل ارتباطه بالأرض ضعيف، وارتباطه بالمجتمع وثقافته أيضا ضعيف، وهو يبحث باستمرار عن المجهول، لأن أهدافه في الحياة غير واضحة.

الفرص المتضائلة

المشكلة أن بقعة الانقسام اتسعت لتشمل كل مجالات الحياة الفلسطينية، من تجارة، ووظائف، وعلاقات شخصية ورسمية، وحتى الأحاديث بين الناس في مختلف المناسبات. فتخيل معي تأثير الانقسام على الذين فقدوا وظائفهم بسبب الانتماء السياسي، وعلى الذين اعتقل آباؤهم أو أبناؤهم بسبب الانتماء السياسي، في غزة والضفة. تخيل معي تأثير انحسار عمل المؤسسات والفعاليات التابعة لفتح في غزة ولحماس في الضفة. كل ذلك يجد له مكانا في نفوس الجيل الصاعد، ليجعله أكثر نفورا من الفصائل وحتى من السياسة، ويجعل من فرص معالجة الانقسام وتداعياته آخذة في التضاؤل.

ولذلك، فإن السؤال الذي لم نجد له إجابة لغاية الآن هو: هل بالإمكان تدارك الوضع على طاولة الحوار قبل فوات الأوان؟ وهل بالإمكان النأي بالتربية والتعليم مثلا، وتجنيب المؤسسات المختلفة، تداعيات هذا الانقسام؟ هل بالإمكان معالجة تداعيات الانقسام، ومعالجة تأثيراته النفسية والاجتماعية؟ هل بالإمكان إعادة الأمور إلى نصابها، وإعادة الهم الوطني إلى رأس سلم أولويات المواطن الفلسطيني، والفصائل الفلسطينية؟ هل بالإمكان التصدي للتحديات التي تواجه شعبنا ونحن موحدين، ومغادرين لحقبة سوداء في حياة شعبنا، هي حقبة الصراع والمناكفات والتراشقات الإعلامية؟ هل ما تزال هناك فرصة سانحة لإعادة الإنسان إلى واقعه، وجعل حقبة الانقسام مجرد سحابة صيف مرت بالشعب الفلسطيني، فتعلم منها دروس الوحدة ورص الصفوف لمواجهة التحديات، وبالتالي إعادة القضية إلى مسارها الصحيح؟ دعونا نحتفظ ببقية أمل، وبشيء من الثقة بقادة شعبنا..

نشر في صحيفة القدس الفلسطينية يوم الأربعاء 2009/10/7